بسم الله الرحمن الرحيم

٥٢ ـ سورة الطور

قال الهيثمىّ : سميت به لأنه لما تضمن تعظيم مهبط الوحى ، فالوحى أولى بالتعظيم ، فيعظم الاهتمام بالعمل، لاسيما وقد عظم مصعد العمل وثمرته . وهذا من أعظم مقاصد القرآن.

وهى مكية ، وآيها تسع وأربعون .

روى الشيخان(١) ومالك عن جبير بن مطعم قال : سمعت النبىّ ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور ، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه .

وروى البخارىّ(٢) عن أم سلمة قالت : شكوت إلى رسول الله ﷺ إنى أشتكى ! فقال : طوفى من وراء الناس وأنت راكبة . فطفت ورسول الله ﷺ يصلى إلى جنب البيت، يقرأ بالطور وكتاب مسطور .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٢ ـ سورة والطور ، ١ ـ حدثنا عبد الله بن يوسف ، حديث رقم ٤٦٥ . وأخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث رقم ١٧٤ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٢ ـ سورة والطور ، ١ ـ حدثنا عبد الله بن يوسف ، حديث رقم ٣٠٩ .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَٱلطُّورِ)

[٢] (وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ)

[٣] (فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ)

[٤] (وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ)

[٥] (وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ)

[٦] (وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ)

« وَٱلطُّورِ » أى طور سينين ، جبل بمَدْيَنَ ، سمع فيه موسى ، صلوات الله عليه ، كلام الله تعالى ، واندك بنور تجليه تعالى .

« وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ » أى مكتوب . والمراد به القرآن ، أو ما يعمّ الكتب المنزلة .

« فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ » متعلق بـ (مسطور) . أى وكتاب سطِّر فى ورق منشور يقرأ على الناس جهاراً . و (الرق) الصحيفة أو الجلد الذى يكتب فيه .

« وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ » أى الذى يعمر بكثرة غاشيته . وهو الكعبة المعمورة بالحجاج والعمّار والطائفين والعاكفين والمجاورين . وروى أنه بيت فى السماء بحيال الكعبة من الأرض . يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون فيه أبداً . والأول أظهر ، لأنه يناسب ماجاء فى سورة (التين) من عطف (ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ) على (طُورِ سِينِينَ) والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، لتشابه آياته ، وتماثلها كثيراً ، وإن تنوعت بلاغة الأسلوب .

قال المهايمىّ : أورده بعد الكتاب الذى هو الوحى ، لأنه محل أعظم الأعمال المقصودة منه ، ولأنه مظهر الوحى ، ومصدر الرحمة العامة المهداة للعالمين ، ولأنه من أجلّ الآيات وأكبرها . كما دل عليه آية[1] (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) وآيات أخر .

« وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ » يعنى السماء . وجعلها سقفاً ، لأنها للأرض كسماء البيت الذى هو سقفه .

« وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ » أى المملوء ، أو الذى يوقد ، أى يصير ناراً ، كقوله[2] (وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ) قال ابن[3] جرير : والأول أولى . أعنى : أن معناه البحر المملوء المجموع ماؤه بعضه فى بعض ، لأن الأغلب من معانى (السَّجْر) الإيقاد أو الامتلاء. فإذا كان البحر غير موقد اليوم، ثبتت له الصفة الثانية وهو الامتلاء، لأنه كل وقت ممتلئ. ولاتنس ماقدمنا فى أوائل (الذَّارِيَاتِ) من أن هذه الأقسام كلها دلائل أخرجت فى صورة الأيمان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ)

[٨] (مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ)

[٩] (يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا)

[١٠] (وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا)

[١١] (فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ)

[١٢] (ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ)

---

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٦٧] . (٢) [٨١ / التكوير / ٦] .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٩و٢٠ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

[١٣] (يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا)

[١٤] (هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ)

[١٥] (أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ)

[١٦] (ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ، إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

« إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ » أى يدفعه عن المكذبين، فينقذهم منه إذا وقع . « يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا » أى تضطرب. « وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا » أى تسير عن وجه الأرض فتصير هباءً منثورًا « فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ » أى بالحق، الجاحدين له « ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ » أى من الاعتساف والاستهزاء « يَلْعَبُونَ » أى بآيات الله ودلائله « يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا » أى يدفعون إليها بعنف . يقال : دعَعْت فى قفاه ، إذا دفعته فيه بإزعاج « هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ » أى يقال لهم ذلك « أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ » أى الذى وردتموه الآن . والفاء للسببية ، لتسبب هذا عما قالوه فى الوحى « أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ » أى كما كنتم لاتبصرون فى الدنيا . قال الزمخشرىّ : يعنى أم أنتم عمى عن المخبر عنه ، كما كنتم عمياً عن الخبر . وهذا تقريع وتهكم . « ٱصْلَوْهَا » أى : ذوقوا حرّ هذه النار « فَٱصْبِرُوٓا۟ » أى على ألمها ، « أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ » أى الأمران. الصبر وعدمه سواء عليكم « إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » أى لاتعاقبون إلا على معصيتكم فى الدنيا لربكم ، وكفركم به .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : لم علل استواء الصبر وعدمه بقوله (إِنَّمَا تُجْزَوْنَ ...) الخ؟ قلت لأن الصبر إنما يكون له مزية على الجزع ، لنفعه فى العاقبة بأن يجازى عليه الصابر جزاء الخير . فأما الصبر على العذاب الذى هو الجزاء ، ولا عاقبة له ولا منفعة ، فلا مزية له على الجزع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ)

[١٨] (فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ)

[١٩] (كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٢٠] (مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ، وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ)

« إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ * فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ » أى متلذذين بما لديهم من الفواكه الكثيرة « وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ » جمع (عيناء) ، وهى الواسعة العين ، فى حسن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ، كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)

« وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ » أى اقتفت آثارهم فى الإيمان والعمل الصالح « أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ » أى فى الجنات والنعيم . والخطاب ، لما كان مع الصحابة رضى الله عنهم ، وهم واثقون بوعد الله ، تم لهم البشارة بالموعود به ، بأنه ينال ذريتهم أيضاً ، إن اتبعوا آباءهم بإحسان . هذا هو المراد من الآية . وأما من قال فى معناها : إن المؤمن ترفع له ذريته فيلحقون به ، وإن كانوا دونه فى العمل ، فلا تقتضيه الآية تصريحاً ولا تلويحاً « وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ » أى وما نقصناهم من ثواب عملهم شيئاً « كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ » أى بما عمل من خير أو شر مرتهن به ، لا يؤاخذ أحد بذنب غيره ، وإنما يعاقب بذنب نفسه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ)

[٢٣] (يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ)

[٢٤] (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ)

« وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ » أى زدناهم وقتاً بعد وقت ، ما ذكر . « يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا » أى يتعاطون فيها كأس الشراب ويتجاذبونها « لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ » أى لا يتكلمون فى أثناء الشرب بسقط الحديث وباطله ، ولا يفعلون مايؤثم به فاعله ، كما كان فى الدنيا . « وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ » أى مصون فى كِنّ ، فهو أنق له ، وأصفى لبياضه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ)

[٢٦] (قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ)

[٢٧] (فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ)

[٢٨] (إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ، إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ)

« وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ » أى يتجاذبون أطراف الأحاديث المفضية إلى شكر المنعم ، والتحدث بالنعمة ، وذلك فى مساءلة بعضهم بعضاً عما مضى لهم فى الدنيا . « قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ » أى خائفين من عذاب الله « فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ » يعنى : عذاب النار . وأصل (ٱلسَّمُومِ) الريح الحارّة التى تدخل المسامّ ، فسميت بها نار جهنم ، لمشابهتها لها ، وإن كان وجه الشبه فى النار أقوى ، لكنه

فى ريح السموم لمشاهدته فى الدنيا ، أعرف . « إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ » أى نعبده مخلصين له الدين « إِنَّهُو هُوَ ٱلْبَرُّ » أى المحسن بمن دعاه « ٱلرَّحِيمُ » أى لمن عبده وخافه بالهداية والتوفيق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ)

« فَذَكِّرْ » أى من أرسلت إليهم وعظهم « فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ » أى تتكهن فيما تدعو إليه ، « وَلَا مَجْنُونٍ » أى له رئىّ من الجن يخبر عنه قومه ما أخبر عنه ، كما يعتقده العرب فى بعضهم ، ولكنك رسول الله حقًّا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ)

[٣١] (قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ)

« أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ » أى حوادث الدهر أو الموت ، لأن (المنون) قد يراد به الدهر ، وربيه صروفه . وقد يراد به الموت ، وربيه نزوله . « قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ » أى : حتى يأتى أمر الله فيكم . والأمر للتهكم بهم والتهديد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ، أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)

[٣٣] (أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ، بَل لَّا يُؤْمِنُونَ)

[٣٤] (فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ)

« أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ » أى عقولهم بهذا التناقض فى القول ، « أَمْ » أى بل

« هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ » أى مجاوزون الحد فى العناد، مع ظهور الحق « أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ » أى اختلق هذا القرآن من عند نفسه ، « بَل لَّا يُؤْمِنُونَ » أى لا يريدون أن يؤمنوا حسداً وتقليداً، فلذلك يرمونه بتلك الفرى. « فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ » أى فى الهداية بذاك الأسلوب الذى ملك ناصية الفصاحة والبلاغة، كقوله[1] (قُلْ فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ) . « إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ » أى فى زعمهم ، فإنهم من أهل لسان الرسول صلوات الله عليه ، ولا يتعذر عليهم مضاهاة بعضهم لبعض ، فى ميدان التساجل والتراسل.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ)

[٣٦] (أَمْ خَلَقُوا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ، بَل لَّا يُوقِنُونَ)

[٣٧] (أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ)

[٣٨] (أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ، فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ)

[٣٩] (أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ)

[٤٠] (أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ)

[٤١] (أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ)

[٤٢] (أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ، فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ)

[٤٣] (أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ، سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ » قال ابن جرير[2] : أى أخلق هؤلاء المشركون من غير

(١) [٢٨ / القصص / ٤٩] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٣٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

آباء ولا أمهات ، فهم كالجماد لا يعقلون ، ولا يفهمون لله حجة ، ولا يعتبرون له بعبرة، ولا يتعظون بموعظة . وقد قيل : إن معنى ذلك أم خلقوا لغير شيء ، كقول القائل : فعلت كذا وكذا من غير شيء ، بمعنى : لغير شيء « أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ » أى أنفسهم ، أو هذا الخلق، فهم لذلك لا يأتمرون لأمر الله ، ولا ينتهون عما نهاهم عنه ، لأن للخالق الأمر والنهى « أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ » أى بوعيد الله ، وما أعدّ لأهل الكفر به من العذاب فى الآخرة ، فلذلك فعلوا ما فعلوا . « أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ » أى خزائن رزقه ، فهم لاستغنائهم معرضون « أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ » أى الجبابرة المتسلطون « أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ » أى مرتقى إلى السماء « يَسْتَمِعُونَ فِيهِ » أى الوحى ، فيدعون أنهم سمعوا هنا لك من الله أن الذى هم عليه حق . « فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ » أى بحجة واضحة تصدق دعواه « أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ » أى حيث جعلوا ، لسفاهة رأيهم، الملائكة إناثاً ، وأنها بناته تعالى ، مع أنه [1] (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ) « أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا » أى أجرة على إبلاغك إياهم رسالة الله تعالى، « فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ » أى من التزام غرامة « مُّثْقَلُونَ » أى من أدائه، حتى زهدهم ذلك فى اتباعك « أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ » أى منه ما شاءوا ، وينبئون الناس عنه بما أرادوا « أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا » أى بالرسول وما جاء به ، « فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ » أى المكور بهم دونك ، فثق بالله ، وامض لما أمرك به « أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ » أى له العبادة على جميع خلقه « سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ » أى : تنزيهاً له عن شركهم ، وعبادتهم معه غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ)

« وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ » هذا جواب لمشركى

(١) [١٦ / النحل / ٥٨] .

قريش الذين كانوا يستعجلون العذاب ، ويقترحون الآيات ، كقولهم[1] (لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا) إلى قوله (أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا).

قال الزمخشرىّ: يريد أنهم لشدة طغيانهم وعنادهم، لو أسقطناه عليهم لقالوا: هذا سحاب مركوم بعضه فوق بعض ، يمطرنا ، ولم يصدقوا أنه كسف ساقط للعذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ)

[٤٦] (يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ)

« فَذَرْهُمْ » أى يخوضوا ويلعبوا ، ويلهيهم الأمل ، « حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ » أى يموتون « يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا » أى لا يدفع عنهم مكرهم من عذاب الله ، شيئاً « وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ » أى دون يوم القيامة ، وهو إما عذاب القبر، أو القحط، أو النوازل التى تذهب بأموالهم وأنفسهم ـ أقوال للسلف ـ واللفظ صادق بالجميع « وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى سنة الله فى أمثالهم من الفجرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ)

« وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ » أى الذى حكم به عليك، وامض لأمره ونهيه، وبلغ رسالاته.

(١) [١٧ / الإسراء / ٩٠ـ٩٢] .

« فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا » قال ابن جرير [١] : أى بمرأى منا ، نراك ونرى عملك ، ونحن نحوطك ونحفظك ، فلا يصل إليك من أرادك بسوء من المشركين .

وقال الشهاب : يعنى أن العين ، لما كان بها الحفظ والحراسة ، استعيرت لذلك ، وللحافظ نفسه ، كما تسمى (الربيئة) عيناً ، وهو استعمال فصيح مشهور . ونكتة جمع (العين) هنا وإفرادها فى قصة الكليم ، عدا عن أنه جمع هنا لما أضيف لضمير الجمع ، ووحد ثمة لإضافته لضمير الواحد ، هو المبالغة فى الحفظ ، حتى كأن معه جماعة حفظة له بأعينهم ، لأن المقصود تصبير حبيبه على المكايد ومشاقّ التكاليف والطاعة . فناسب الجمع ، لأنها أفعال كثيرة ، يحتاج كل منها إلى حارس بل حراس . بخلاف ماذكر هناك من كلاءة موسى عليه السلام « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ » أى من منامك .

روى الإمام أحمد [٢] عن عبادة بن الصامت ، عن رسول الله ﷺ قال : من تعارّ من الليل فقال : لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . ثم قال : رب اغفر لى (أوقال : ثم دعا) استجيب له . فإن عزم فتوضأ ثم صلى ، قبلت صلاته . وأخرجه البخارىّ [٣] فى صحيحه وأهل السنن .

وورد من أذكار الاستيقاظ من النوم قول : سبحان الله وبحمده ، سبحان القدوس . و : لاإله إلاأنت ، سبحانك اللهم أستغفرك لذنبى ، وأسألك رحمتك . اللهم زدنى علماً . ولا تزغ قلبى بعد إذ هديتنى ، وهب لى من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

وقيل : حين تقوم إلى الصلاة ـ روى مسلم [٤] فى صحيحه عن عمر ؛ أنه كان يقول فى

---

(١) انظر الصفحة رقم ٣٧ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣١٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

(٣) أخرجه فى : ١٩ ـ كتاب التهجد ، ٢١ ـ باب حدثنا علىّ بن عبدالله ، حديث رقم ٦٣٤

(٤) أخرجه فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث رقم ٥٢ (طبعتنا) .

ابتداء الصلاة : سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك . ورواه أحمد وأهل السنن عن أبى سعيد وغيره ، عن النبىّ ﷺ ؛ أنه كان يقول ذلك . وعن مجاهد : حين تقوم من كل مجلس . وكذا قال عطاء وأبو الأحوص .

روى أبو هريرة [١] عن النبى ﷺ أنه قال : من جلس فى مجلس ، فكثر فيه لغطه ، فقال قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أستغفرك وأتوب إليك ـ إلا غفر الله له ما كان فى مجلسه ذلك ـ رواه الترمذىّ وصححه ، وكذا الحاكم .

وأخرج أبو داود [٢] والنسائىّ والحاكم عن أبى برزة الأسلمىّ قال : كان رسول الله ﷺ يقول بأخرة ، إذا أراد أن يقوم من المجلس : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك . فقال رجل : يارسول الله ! إنك لتقول قولاً ما كنت تقوله فيما مضى ؟ ! قال : كفارة لما يكون فى المجلس !

وقد أفرد الحافظ ابن كثير لهـذا الحديث جزءاً على حدة ، ذكر فيه طرقه وألفاظه ، وعلّله ، فرحمه الله .

ولا يخفى أن لفظ الآية يصدق بالمواضع المذكورة كلها ، وتدل الأحاديث المذكورة على الأخذ بعمومها ، فإن السنة بيان للكتاب الكريم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ)

« وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ » أى اذكره واعبده بالتلاوة والصلاة بالليل ، كما قال تعالى [٣] (وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا) .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٤٢٤ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ٢٧ ـ باب فى كفارة المجلس ، حديث ٤٨٥٩

(٣) [١٧ / الإسراء / ٧٩] .

وقد روى فى أذكار الليل من التسابيح ما هو معروف فى كتب الحديث . وقد جمعت ذلك معرّى عن أسانيدها فى كتابى (الأوراد المأثورة) .

« وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ » أى : وسبحه وقت إدبارها ، وذلك بميلها إلى الغروب عن الأفق ، بانتشار ضوء الصبح . وقد عنى بذلك إما فريضة الفجر أو نافلته ، أو ما يشملهما . قال قتادة : كنا نحدّث أنهما الركعتان عند طلوع الفجر . وقد ثبت فى الصحيحين[1] عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : لم يكن رسول الله ﷺ على شىء من النوافل ، أشدّ تعاهداً منه على ركعتى الفجر . وفى لفظ لمسلم[2] : ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها .

قال الزمخشرىّ : وقرئ (وَأَدْبَٰرَ) بالفتح ، بمعنى فى أعقاب النجوم وآثارها إذا غربت .

تنبيه :

قال فى (الإكليل) عن الكرمانىّ : إن بعض الفقهاء استدل به على أن الإسفار بصلاة الصبح أفضل لأن النجوم لا إدبار لها ، وإنما ذلك بالاستتار عن العيون . انتهى . وهو استدلال متين .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١٩ ـ كتاب التهجد ، ٢٧ ـ باب تعاهد ركعتى الفجر ، حديث ٦٣٨ .

وأخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٩٤ و ٩٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٩٦ (طبعتنا) .